ابن خمير السبتي وآثاره

للدكتور محمد بنشريفة

تكشف الأيام شيئا فشيئا ما كان محجوبا من تراثنا وتخرج المطابع مرة بعد مرة مجاهيل من هذا التراث، وكتاب «تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء» لابن خمير السبتي هو من قبيل ما كان محجوبا مجهولا، وكان يمكن أن يظل كذلك لولا أن قيض الله تعالى له محققا متفننا قام بإعداده وتقديمه إلى الناس في حلة قشيبة، ذلكم هو الأخ الصديق الأستاذ الدكتور محمد رضوان الداية، وهو ـــ وفقه الله ـــ من أشهر المعنيين بخدمة التراث وتحقيقه، ومن أبرز المعتنين بنشر ذخائره ونوادره، وكتاب «تنزيه الأنبياء» لابن خمير من آخر ما أنجز في ميدان التحقيق وقد صدر في آخر سنة 1990 ولكنه لم يصل إلينا في المغرب إلا في أواخر سنة 1991 ولم تتيسر لي قراءته إلا منذ أيام، ولعلي لست في حاجة إلى التنويه بالجهد الذي بذله الأخ الكريم في ضبط متن الكتاب وشرح غريبه ووضع فهارسه، فكل هذا معهود في أعماله غير أني وجدت مقدمة التحقيق خالية مما يعتمد عليه في معرفة مؤلف الكتاب، والشيء الوحيد المعول عليه فيها هو ما نقل من أول المخطوط، فقد ورد فيه بعد ذكر العنوان ما يلي «تأليف الشيخ الامام الفقيه المرحوم أبي الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي عرف بابن خمير رحمة الله عليه» وقد رسم اسم خمير في المخطوط والمطبوع بالحاء المهملة وضبط في الغلاف الداخلي بضم الحاء وفتح الميم وتشديد الياء، ولا أساس لهذا الرسم والضبط، إذ الصواب كما سنرى أنه خمير بالخاء، وكان ينبغي للصديق الداية أن يبذل شيئا من الجهد في البحث عن اسم الرجل أو ترجمته في مظانها، وأقرب هذه المظان التي وردت فيها ترجمة صاحبنا هي «التكملة» لابن الأبار، فقد ترجم له فيمن اسمه علي من الغرباء، وهم ـــ في اصطلاحه واصطلاح أصحاب الصلات ـــ الداخلون إلى الأندلس والطارئون عليها من غير أهلها، وفيما يلي نص الترجمة :

«علي بن محمد بن خمير. من أهل سبتة، يكنى أبا الحسن. دخل الأندلس، وكان أديبا أصوليا. توفي بعد الستمائة بيسير» [1].

وهي كما نرى ترجمة قصيرة تخلو من التفصيل ويشوبها انعدام الضبط في اسم والد المترجم، وفي تاريخ وفاته. ولكن ابن الابار على كل حال صاحب فضل في تسجيل اسم الرجل وتدوين ما انتهى إلى علمه من خبرة، ومن حسن الحظ أنني وجدت لهذا السبتي ترجمة أخرى في قلائد الجمان لابن الشعار وهي أكبر مادة وأكثر فادة من ترجمة ابن الابار وأوردها بتمامها فيما يلي :

علي بن خمير ابو الحسن السبتي كان فقيها مالكيا شاعرا مفلقا أصوليا عالما أديبا لغويا توفي سنة أربع عشرة وستمائة.
أنشدني أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن علي بن عبد الواحد الأوسي السبتي [2] بحلب المحروسة قال : أنشدني أبو الحسن علي بن خمير لنفسه :

إذا شِئْتَ أَنْ تَبْكِي [فقيداً من الْوَرَى] فَتَنْدُبَـهُ بَعْـدَ النَّبِـيّ الْمُكَـرَّمِ
فَحَامِـلُ عِلْـمٍ عَالِـمٌ مُتَـوَرِّعٌ حَرِيصٌ عَلَـى التَّحْـرِيضِ لِلْمُتَعَلِّـمِ
وَحَاكِـمُ عَدْلٍ بِالشَّرِيعَـةِ قَائِـمٌ يَقُـولُ بِحُكْـمِ اللهِ لَا بِالتَّحَكُّـمِ
وَصَاحِبُ مَالٍ فَاضِـلٌ مُتَـفَضِّلٌ يَجُـودُ بِهِ حَقـاً عَلَـى كُلِّ مُعْـدِمِ
وَسَاهِـرُ لَيْـلٍ شَافِـعٌ مُتَشَفِّـعٌ بِكُـلِّ نَؤُومٍ شَابِـعٍ مُتَـبَشِّمِ
وَصَاحِبُ سَيْـفٍ لِلْعَـدُوِّ مُرَابِـطٌ يَسُدُّ بِهِ فِي كُلِّ ثَغْـرٍ مُثَلَّـمِ
هُمْ خَمْسَةٌ يُبْكَوْنَ حَقـاً وَغَيْرُهُـمْ : «إِلَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قَشْعَمِ [3]»

لقد وجدتني وأنا أقرأ هذه الترجمة أردد قول طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتا ولم تضرب له وقت موعد

(1) التكملة رقم 2382 (الملحق)
(2) أديب سبتي هاجر إلى حلب وأقام فيها، وقد ترجم له قصيدة رقيقة. انظر قلائد الجمان 4 : 514 نشر فؤاد سزكين.
(3) قلائد الجمان 4 : 387 — 388، وانظر استعماله لهذا الشطر المعروف من معلقه زهير في كتابه تنزيه الأنبياء : 28

وهذه هي الحال مع هذا المؤلف المغربي الذي أهمله أهله في جملة من أهملوا من الاعلام ثم شاء الله أن يوجد خبره حيث لا يظن وجوده.

إن ترجمة ابن الشعار هذه حافلة بالحلى والنعوت وهي تدل على أن ابن خمير كانت له مشاركة في الفقه والأصول واللغة والأدب، كما أنها تحدد وفاة الرجل تحديدا يوضح العصر الذي عاش فيه.

أما الفائدة الكبرى التي نستفيدها من الترجمة فهي أن هذا المتكلم الأصولي كان شاعرا مفلقا، ويبدو أنه عرف بين معاصريه بالشعر أكثر مما عرف بسواه، فهذا بلديه محمد بن عبد الله الأوسي يحمل شعره إلى المشرق وينشده بحلب الشهباء، وهذا معاصره محمد الهاشمي المالقي المتوفي عام 613 هـ يذكره في قصيدته الطويلة التي سرد فيها أعلام سبتة في وقته يقول :

ولابن خمير في القريض تقدم
به بز قيسا وازدرى بابن غالب (4)

أي أنه شاعر متفوق، يربي على قيس بن ذريح في الغزل ويزري بالفرزدق في الفخر، وسنعود إلى النظر في مصداق هذا القول بعد تحقيق اسم ابن خمير، فقد غلط ابن الأبار في اسم والده، وذكره ابن الشعار منسوبا إلى جده الأعلى، أما صواب الاسم وتمامه فنجده في أوال تآليفه، فهو في أول «تنزيه الأنبياء» : «الشيخ الامام الفقيه المرحوم أبو الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي عرف بابن خمير رحمة الله عليه» (5).

وجاء في أول «مقدمات المراشد، إلى قواعد العقائد» أنه «للشيخ الإمام العلامة أبي الحسن علي بن أحمد الأموي عرف بابن خمير رحمه الله تعالى» وتبدأ ديباجة هذا الكتاب بما يلي : «قال الشيخ الفقيه الإمام القدوة أبو الحسن علي بن أحمد الأموي عرف بابن خمير رحمه الله» واسم خمير بالخاء يوجد بزنة أمير كما يوجد بزنة زبير (6)، وقد ورد مضموم الأول غير منقوط في عنوان الكتاب الأول وبالخاء المعجمة غير مشكولة في عنوان الكتاب الثاني، وفي

---

(4) كتاب أعلام مالقة ــ مخطوط

(5) مقدمات المراشد ــ مخطوط خ.ق.

(6) راجع القاموس المحيط ــ مادة خ م ر.

تكملة ابن الأبار المطبوعة والمخطوطة، وهو مشكول في قلائد الجمان لابن الشعار :

وعليه فهو ابن خمير على وزن زبير بضم الخاء وفتح الميم وسكون الياء، وقد عرف بهذه الشهرة قبله فقيه أندلسي معروف، هو سعيد ابن خمير الذي كان مشاورا ومفتيا وموثقا بقرطبة في القرن الثالث الهجري (7)، وفتاويه موجودة في المعيار للونشريسي (8).

إن هذه المعلومات التي وقفنا عليها تظل غير كافية في معرفة مؤلفنا السبتي، فنحن مثلا لا نعرف أحدا من الشيوخ الذين قرأ عليهم وأخذ عنهم في المغرب والأندلس. وكنا نطمع أن نجد ذكرا لبعضهم عند ابن الزبير في «صلة الصلة» أو ابن عبد الملك في «الذيل والتكملة» ولكن ابن الزبير لم يترجم لابن خمير، وأما عبد الملك فقد ترجم له في السفر السابع ولكنه مفقود الآن.

ومن الأعلام الذين هم في طبقة شيوخه أبو محمد عبد الله ابن عبيد الله الحجري السبتي (ت. 591 هـ) وأبو عبد الله بن علي المعروف بابن الكتاني الفاسي (ت. 597 هـ) وأبو عمرو عثمان بن عبد الله السلالقي (ت. 564 هـ) وهؤلاء الأعلام كلهم من المبرزين في علم الكلام الذي ألف فيه ابن خمير كما سنرى.

وأغلب الظن أنه أخذ عن بلديه ابن عبيد الله الحجري المذكور، فقد كان شيخ سبتة بل شيخ المغرب والأندلس في وقته، كما أن أشهر سند بين أيدينا في كتب الباقلاني وابن فورك والجويني هو سند ابن عبيد الله الحجري عن ابن العربي (9)، وقد ورد في كتاب «تنزيه الأنبياء» لابن خمير ذكر ابي بكر ابن العربي، وقال الأخ الدكتور إن عبارة ابن خمير «توحي أنه ألف كتابه أوبو بكر بن العربي حي» وهذا تقدير جاء بعيدا عن الصواب، فابن العربي هو كما رأينا شيخ شيوخ ابن خمير، وها هو نص العبارة المشار إليها «وهذه القولة ليست لي ولا يبلغ نظري إلى هذا القدر، وإنما ذكرها الامام أبو بكر ابن العربي

---

(7) راجع ترتيب المدارك 5 : 162 ــ 163

(8) المعيار 3 : 136، 225 /5 : 247، 250، 252، 259، 260 /8 : 168

(9) راجع فهرس المنتوري مخطوط

في بعض تواليفه، ولا أعلم هل هي له أو لغيره» [10] وليس في هذه العبارة ما يدل على ما قاله الأخ الدكتور.

وورد في الكتاب أيضا ذكر لأبي العباس أحمد بن محمد اللخمي وذلك في اخر مبحثه في قصة آدم عليه السلام عند كلامه على قوله تعالى : ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما﴾ فقد وجه هذا النسيان بأنه إنما كان في أمر أكل الشجرة لا غير وقال «ولقد تحيرت في إثبات هذا التخلص على هذا الوجه منذ سنين لمعارضة هذا النسيان بذكر المعصية والغواية والظلم حتى تذاكرت يوما فيها مع الفقيه العالم المتفنن أبي العباس أحمد بن محمد اللخمي أدام الله كرامته فكان منه في درج المذاكرة [11] ما يليق بمثله من التنبيه فيها على بعض نكت نادرة مؤيدة بالتوفيق الرباني فثلج بها الصدر، إذ لا يصح سواها كما قدمناه، وأخبرني مع ذلك أنه أتعبه النظر في حل مشكلاتها مدة طويلة حتى فتح عليه، فشارك بحمد الله وأعان على ما كان تعذر منها، بارك الله له فيما منحه، وبارك لنا في حياته وبقائه وصحة معاملته ومعونته [12]».

وقد علق الأخ الداية على الاسم المذكور بقوله : «أرجح انه من علماء الأندلس، ولم يتعين لدي، فقد وجدت في كتاب «الذيل والتكملة» لابن عبد الملك نحو عشرة ممن يكنون بأبي العباس ويتسمون بأحمد بن محمد اللخمي ولا مرجح أو دلالة على المقصود» [13].

وكتب مثل هذا في مقدمة التحقيق [14]، وترجيحه لا أساس له كما أن الجهد الذي بذله في البحث عن الاسم كان في غير محله إذ أنه كان يتعين أن يحصر فيمن ينطبق عليه الاسم من أعلام سبتة لأن المذاكرة المشار إليها ينبغي أن تكون قد جرت بين سبتيين متعاصرين، والاسم المذكور لا يوجد في المطبوع من «الذيل والتكملة» لأنه من الغرباء المذكورين في السفر السابع المفقود الآن، ولعل الأخ الدكتور كان يجده لو بحث عنه في مصدر آخر،

(10) تنزيه الأنبياء : 59

(11) في المطبوع : المذكرة ولا معنى لها هنا.

(12) تنزيه الأنبياء : 75 — 76

(13) نفســه : 75

(14) نفســه : 14

وعلى كل حال، فأبو العباس أحمد ابن محمد اللخمي هو المعروف بابن أبي عزفة أو العزفي، وهو والد أبي القاسم مؤسس إمارة العزفيين في سبتة وكان أبو العباس اللخمي من أئمة أهل المغرب في وقته ذكر الرعيني في برنامجه أنه «لزم التدريس بجامع سبتة مدة عمره ورحل الناس إلى الأخذ عنه والاستفادة منه» [15]. وقد أطال في ترجمته وذكر جماعة كبيرة من شيوخه من أهل الأندلس والعدوة والمشرق وسرد مجموعة ضخمة من المصنفات التي سمعها على شيوخه، ومن تآليفه برنامجه أي معجم شيوخه ومروياته [16]، «ومنهاج الرسوخ، في الناسخ والمنسوخ» [17] «والدر المنظم، في المولد المعظم» [18]، «ودعامة اليقين، في زعامة المتقين» [19].

فهذا هو أبو العباس اللخمي الذي ذاكره ابن خمير في مسألة نسيان آدم وأثنى على فهمه ومشاركته وهو ــ فيما يبدو ــ من أقرانه ولكنه عاش إلى عام ثلاثة وثلاثين وستمائة، وقد كان أبو العباس اللخمي العزفي أشهر تلاميذ أبي محمد الحجري السبتي الذي تقدم ذكره، وذكر اللخمي هذا أن شيخه الحجري أقرأ بسبتة أو سمع نحوا من ثلاثين سنة، ومن أشهر تلاميذ الحجري ورفاق اللخمي أبو الحسن الشاري الذي بنى في سبتة مدرسة علمية على نمط المدرسة النظامية في بغداد وأنشأ بها مكتبة كانت تشتمل على ذخائر المدونات ونفائس المصنفات [20]، ولا نعرف شيئا عن صلة ابن خمير بأبي الحسن هذا كما أننا لا نعرف صلته بأعلام سبتيين آخرين من معاصريه وبلديه.

وقد ذكر ابن الابار أن ابن خمير دخل الأندلس، ولكننا لا نعرف شيئا عن وجوده فيها، وهو يقول في كتابه «تنزيه الأنبياء» ما يلي : «وقد تذاكرت مع طالب من طلبة الأندلس ملحوظ الطلب» [21] ولكننا لا نعرف أين كانت هذه المذاكرة.

---

(15) برنامج الرعيني : 42 ــ 43

(16) وصفه الرعيني بأنه احتفل فيه، وهو مفقود.

(17) يوجد القسم الأول منه مخطوط في بعض الزوايا بالجزائر ومنه صورة في الخزانة العامة بالرباط

(18) ما يزال مخطوطا وتوجد منه نسخة محققة مرقونة جامعية في خزانة كلية الآداب بالرباط.

(19) طبع بتحقيق الأستاذ أحمد التوفيق.

(20) الذيل والتكملة 8 : 197، 199

(21) تنزيه الأنبياء : 118

وإذا كنا لم نقف على شيء منصوص عليه فيما يتعلق بشيوخ ابن خمير فقد وقفنا على ذكره بين شيوخ أبي عبد الله محمد بن عبد الله الأزدي السبتي، وهو من أشهر أعلام سبتة في وقته ومن أبرز تلاميذ أبي محمد الحجري، ولد سنة 567 هـ وتوفي سنة 660 هـ وولي خطة القضاء بسبتة (22)، وقد نص ابن عبد الملك المراكشي في ترجمته على أنه روى عن ابي الحسن علي بن أحمد بن خمير (23) ونستفيد من هذا أن ابن عبد الملك يعرف الرجل حق المعرفة بدليل إيراد اسمه على الوجه الصحيح، ومن المؤكد أنه ترجم له في السفر السابع المفقود الآن، ونقدر أنه ذكر في ترجمته فوائد تتعلق بحياة ابن خمير وآثاره.

ويبدو أن السكوت عن ذكره في أثناء التراجم وعدم الاشارة إلى تآليفه في كتب البرامج يرجعان إلى أسباب :

منها أنه لم يكن من المشتغلين بالروايات والرواة الذين يرد ذكرهم في الأسانيد وإنما كان من أهل الدراية.

ومنها أنه كان ذا مزاج حار ولسان حاد وقلم سيال في انتقاد بعض معاصريه لا سيما المحترفين للوعظ والمتكسبين بالتصوف في بلده سبتة فهو ينعتهم بالبهائم والأوباش والاراذل والفجرة والكلاب (24) ونقدر أنه وقعت له خصومات معهم، ولا نستبعد أن تكون سببا في خمول ذكره.

ومهما تكن الأسباب فقد كتب الله لبعض آثاره أن تنقل وتصل إلينا، وهي تشهد لصاحبها بالتفقه في أصول الدين والتمكن من مسائله والاطلاع على التاليف التي وضعت فيه، وآثار ابن خمير التي نعرفها هي :

1 — تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء
2 — مقدمات المراشد، إلى قواعد العقائد.
3 — الوصيـــة

(22) ترجمته في الذيل والتكملة 8 : 303 — 307 وبرنامج الرعيني : 168 — 169
(23) الذيل والتكملة 8 : 304
(24) تنزيه الأنبياء : 24، 25، 26، 104، 106، 140، 145

1. تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء :

فأما كتاب تنزيه الأنبياء فقد وصل إلينا في نسخة مشرقية مصححة ومقابلة بأصل انتسخ من أصل المؤلف وقد كان الفراغ من نسخها في 15 صفر من سنة 646 هـ بالقاهرة، وهي نسخة صحيحة، وخطها جيد، وناسخها عالم معروف هو شمس الدين أبو ابراهيم اسحاق البروجردي [25] وله ترجمة طيبة في «الوافي بالوفيات» نوردها فيما يلي :

«إسحاق بن محمود بن ملكويه بن أبي الفياض الشيخ شمس الدين أبو ابراهيم البروجردي الصوفي المشرف، من أكابر مشايخ الصوفية وقدمائهم، ولد سنة سبع وسبعين وخمسمائة ببروجرد وسمع من أبي طاهر لاحق ابن. قدرة ببغداد وابن طبرزد والشيخ عبد القادر وأبي تراب الكرخي وغيرهم، وسمع بالقاهرة من جماعة وكان يكتب خطا جيدا ونسخ الكثير وصحب الشيوخ، خرج له أبو بكر ابن المنذري مشيخة. روى عنه الدمياطي والدواداري والمصريون، وهو ثقة نبيل لديه فضل، ولي إشراف الخانقاه مدة. وتوفي سنة تسع وستين وستمائة» [26].

فهذه النسخة نسخها هذا العارف قبل وفاته بثلاث سنوات، والأصل الذي نسخ منه كان مقابلا بأصل المؤلف ولم ينص الشيخ الناسخ على خط الأصل المذكور، ويمكن أن يفهم من كونه مقابلا بأصل المؤلف أنه كان بخط مغربي، والذي يهمنا هنا هو أن هذا الكتاب الذي لم يسجل في كتب الفهارس المغربية وغيرها عرفت منه ثلاث نسخ في القرن السابع الهجري، وانتقل من المغرب إلى المشرق في هذا القرن الذي توفي فيه مؤلفه ابن خمير.

لقد عرض الأخ الدكتور الداية في مقدمة تحقيقه للكتاب إلى ذكر بعض التآليف في موضوع تنزيه الأنبياء ومنها كتاب السيوطي وعني بنقل كلامه في سبب وضعه لكتابه، ونظن أنه يحسن بنا أن نبحث في السبب الذي دفع ابن خمير إلى إملاء كتابه على طلبته في سبتة.

---

(25) نسبة إلى بروجرد بالفتح فالضم وكسر الجيم وسكون الراء : بلدة بين همذان وبين الكرج. انظر معجم البلدان لياقوت.

(26) الوافي بالوفيات 8 : 424

ولعل أول ما ينبغي النظر فيه والتنبه إليه هو السياق الذي ورد فيه، فابن خمير هو خامس خمسة من علماء سبتة ألفوا في موضوع النبوة والأنبياء والاعجاز والمعجزات وذلك في تواريخ متقاربة وهؤلاء هم :

أبو الربيع سليمان بن سبع مؤلف شفاء الصدور [27]. والقاضي عياض مؤلف «الشفا، بتعريف حقوق المصطفى» [28] وأبو العباس العزفي وولده مؤلفا «الدر المنظم في مولد النبي المعظم» [29].

وابن خمير «مؤلف تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء» [30].

وابن دحية مؤلف «المستوفى، في شرف المصطفى»، و«الآيات البينات، فيما يخص الله تعالى به أعضاء نبيه من المعجزات»، و«التنوير، في مولد السراج المنير» [31].

ويلتقي ابن خمير مع القاضي عياض — وهو من طبقة شيوخ ابن خمير — في التعبير عن الموضوع العام لكتابيهما، فالقاضي يقول إنه «الكشف عن غوامض ودقائق، من علم الحقائق، مما يجب للنبي ويضاف إليه، أو يمتنع أو يجوز عليه، ومعرفة النبي والرسول والرسالة والنبوة وخصائص هذه الدرجة العلية» [32].

وابن خمير يقول إنه الرد على «الجاهلين بحقيقة النبوة وما يجوز على أنبياء الله تعالى وما يستحيل وما يجب على الكافة من تعزيرهم وتوقيرهم وتدقيق النظر في استخراج مناقبهم على أتم الكمال وأعمه» [33].

(27) انظر تعريف سعيد أعراب به وبكتابه في «دعوة الحق» س 1979 وكتاب شفاء الصدور كبير يوجد من طرف مخطوط

(28) توجد منه طبعات متعدّدة ونسخه الخطية كثيرة وقد شرحه غير واحد.

(29) يوجد مخطوطا وقد حقّق في رسالة جامعية توجد مرقونة بكلية الآداب بالرباط

(30) ابن خمير مسبوق في العنوان والموضوع بالشريف المرتضي وكتاب تنزيه الأنبياء مطبوع في العراق سنة 1961

(31) هي ثلاثة فالأول في أسماء المصطفى وشرحها ولا نعرف الآن هل هو موجود أم مفقود، والثاني وهو الآيات توجد منه نسخة خطية في الجزائر والثالث وهو السراج ألفه باربل لصاحبها الملك مظفر الذي كان مولعا بعمل المولد، وتوجد منه نسختان في المكتبة الوطنية بباريس

(32) الشفـا : 3.

(33) تنزيه الأنبياء : 24.

ويلتقيان أيضا في عدد من القضايا كالعصمة وتنزيه الأنبياء، فقد انتقد القاضي ما صدر عن بعض الشعراء المتساهلين في الكلام كالمتنبي والمعري وابن هانيء الأندلسي وغيرهم [34]، أما ابن خمير فقد شتم بعض الوعاظ والقصاص لجهلهم بمقام النبوة وتكلمهم في الأنبياء بما لا يليق.

والواقع أن عمل ابن خمير والعزفي وابن دحية إنما هو امتداد لعمل الشيخين : ابن عياض وابن سبع.

فابن خمير أزعجه خوض الوعاظ المحترفين في أعراض الأنبياء بغير علم كما أغضبه سرد القصاص الجهلة لقصص الأنبياء على العوام بحسب هواهم.

والعزفي لم تعجبه البدع التي كانت ترتكب في الأندلس بمناسبة ينّير والميلاد والعنصره وهي أعياد للنصارى كان يحتفل بها المسلمون في الأندلس وسبتة وذلك بسبب مجاورتهم ومخالطتهم للنصارى.
وقد حارب أبو العباس وولده أبو القاسم هذه البدع وصرفوا الناس عنها بوسائل مختلفة أهمها تنظيم الاحتفال بالمولد النبوي وتأليف كتاب «الدر المنظم، في مولد النبي المعظم» وهو إلى السيرة أقرب منه إلى الموالد المعروفة، وتقع هذه السيرة في 41 فصلا.

وكما كان للعزفي السبتي فضل في تأسيس الاحتفال بالمولد النبوي بسبتة [35] كان لابن دحية السبتي ذكر في تعزيز الاحتفال به في إربل [36].

ويتميز ابن خمير في كتابته باستعمال أساليب الحجاج واعتماد طرائق المتكلمين الأشاعرة، وقد رأى من الواجب عليه أن ينبري لفئة من الوعاظ المتهمين في عقيدتهم ودينهم وكان لهم تأثير على العوام رجالا ونساء إذ كانوا يسردون قصص الأنبياء، حسب هواهم وفيهم يقول : «وغرض هؤلاء الفسقة في سرد تلك الحكاية المورطة قائلها وناقلها في سخط الله تعالى أن يهونوا الفسوق والمعاصي على بله العوام، ويتسللوا إلى الفجور بالنساء بذكرها، حتى ترى المرأة تخرج من مجلس الواعظ إلى منزله فتسأله على التفصيل فيزيدها أقبح مما

---

(34) الشفا : 209 — 211
(35) البيان المعرب : 446 ومقدمة الدر المنظم.
(36) راجع وفيات الأعيان 3 : 449

أسمعها في الجمهور، يقول لها هذا أمر ما سلم منه عظماء المرسلين فكيف نحن، فلا يزال يهون عليها ما كان يصعب من قبل» [37].

وابن خمير في رميه هؤلاء الوعاظ بالفسوق هنا وفي مواضع أخرى من كتابه لا يبالغ أو يتزيد وإنما يذكر أمورا وقعت وقتئذ في بلده سبتة وفي غيرها، فقد ظهرت فئة من الوعاظ المحترفين قلدوا ابن الجوزي في كلامه، ولكنهم لم يقتدوا به في سلوكه وكان الوعظ عندهم ضربا من التكسب ونوعا من الكدية، يقول ابن عبد الملك في أحدهم : «وله في الكدية منازع غريبة [38] وقد أشبهوا في التجوال في الآفاق والتحايل على الناس أبا زيد السروجي بطل المقامات الحريرية، ومن هؤلاء واعظان من بيت بني عفير الاشبيليين وهما أبو بكر محمد ابن عفير المتوفي سنة 662 هـ [39] وقريبه أبو العباس أحمد ابن عفير المقتول في سنة 638 هـ [40] وقد أشار ابن عبد الملك المراكشي إلى بعض مجالس الأول الوعظية في تلمسان وأغمات وهي تظهر تهافته على طلب الأموال والشهوات [41]، وأما الثاني فقد حكى ابن سعيد في شأنه حكايات يندى لها الجبين إذ كان يتظاهر بالمعاصي ويتعاطى الشراب ويفرق بين المرء وزوجه، دعاه مرة أحد التجار الذين يحسنون الظن بالوعاظ إلى منزله ليصلح بينه وبين امرأته فاستمالها إليه وأفسدها على زوجها حتى طلقها وتزوجها هو «بنكاح، خير منه السّفاح» كما يقول ابن سعيد [42].

ولم يكن ابن خمير وحده الذي نبه على خطر هؤلاء الوعاظ، فقد أشار الحافظ ابن الزبير إلى بدعهم وجنايتهم على الدين قال في ترجمة ابن المحلي

---

(37) تنزيه الأنبياء : 26.

(38) الذيل والتكملة 6 : 346 وروى ابن عبد الملك عن بعضهم وصفا لمجلس لهذا الواعظ ابن عفير قال : «حضرت بعض مجالسه الوعظية بتلمسين، وقد ذكر للحاضرين أنه يريد التزوّج أوالتسرّي والتمس منهم كفايتهم إياه النظر في ذلك ثم أنشد :

وقلت يا ربّ حملناكم لما طغى الماء على الجارية
عبدك هذا قد طغى ماؤه فا حمله يا رب على الجارية

فتأثر له الحاضرون وياسروه في مطلبه»

(39) نفسه 6 : 346 — 347

(40) اختصار القدح : 165 — 166.

(41) الذيل والتكملة : 6 : 346.

(42) اختصار القدح : 166.

السبتي ــ وهما معا من عصر ابن خمير ــ : «وكان يعظ الناس بمسجد مقبرة زقلو من سبتة، حضرت بعض مجالسه وكلامه في التفسير على المنبر بالمسجد المذكور، وكان فصيحا لسنا مفوها نبيل الأغراض في وعظه وتحليقه، حسن التناول، لا يشارك وعاظ الوقت في شيء من محدثات مرتكباتهم، إنما يذكر الآية وتفسيرها تفسيرا مستوفى وينيط بذلك ما يلائم الحال والمقال من حكايات الصالحين وإشارتهم على أحسن نهج وأبدع نسج، يأخذ من مجالسه الطالب بحظه، والعامي بنافع الترغيب والترهيب من مقصود وعظه (42 م)».

ومن هنا نعرف أن ابن خمير كان ــ فيما ينتقده ــ يشير إلى أفعال وأقوال بعينها ويتحدث عن أشخاص يعنيهم ولكنه لا يسميهم ومن ذلك أيضا ما أورده في شرح قصة نبينا عليه الصلاة والسلام مع زيد وزينب، فقد أشار إلى ما جرت به عادات الجهلة المتكبرين على الموالي وعدم رضاهم بالتزاوج والتصاهر بين السيد والمولى وقال وهو يعدد الأمور التي تستنبط من القصة : «ومنها أن الله تعالى سن لروسله (ﷺ) هذه السنة رغم أنف المتكبرين، فمن لام بعد هذه السنة أحدا في أن يزوج مثلا بنته لعبده أو يتزوج امرأة عبده من بعده فليفغر فوه بفهر يكسر قواضمه وخواضمه ويطرحه في أمه الهاوية (43) إذ ليس بعد رسول الله (ﷺ) شارع ولا فوق شرفه شرف» (44) فهو يعني بهذا الكلام مثل ذلك الشاعر الذي قال في المظفر العامري لما زوج بنت أخته من مولى لهم :

عربـــــــــي مزوج عبـــــده بنت أختـــــــه
قبـــــح الله مثـــــل ذا ورمـــــاه بمقتـــــه (45)

ويعني كذلك مثل ابن حمدين قاضي قرطبة الذي قال عندما تقدم إليه عبد أسود يخاصم زوجة له وكانت سيدة بيضاء :

رأيت غرابــــا علـــى سوسنـــه فكـــان بشيـــرا بسوء السنــــه
فيـــا مرود الساج زدعـــــزة ويا مكحــل العــاج زد مهونــه (46)

(42 م)صلة الصلة (مخطوط) والذيل والتكملة 8 : 322.

(43) ويطرحه في أمه الهاوية أي في جهنم وهو من قوله تعالى : ﴿وأما من خفّت موازينه فأمّه هاوية﴾

(44) تنزيه الأنبياء : 60.

(45) جذوة المقتبس : 372.

(46) رايات المبرزين : 39 وألف باء 2 : 444.

إن موضوع النبوة موضوع دقيق وفيه كما يقول القاضي عياض : «مهامه فيح تحار فيها القطا، وتقصر بها الخطا، ومجاهل تضل فيها الأحلام، إن لم تهتد بعَلَمِ عِلْمٍ ونظر سديد، ومداحض تزل بها الأقدام، إن لم تعتمد على توفيق من الله وتأييد» (47).

وقد روى ابن عبد الملك خبر حادثة وقعت لابن القطان في عصر ابن خمير تقريبا ونسوقها هنا لعلاقتها بالموضوع، قال : قريء على أبي الحسن ابن القطان يوما في مدة العادل وهو على الحال المتقدم صفتها في رسمه (48) حديث من أعلام النبوة فتكلم عليه أبو الحسن بما حضره في مضمنه ثم ختم الخوض فيه بأن قال : هذا من صفاء باطن النبي (ﷺ) وشف جوهره في كلام نحو هذا فنسب إليه القول باكتساب النبوات، وجرت في ذلك طائفة من ثالبيه والطاعنين عليه وتألبوا وكتبوا رسمين : استرعوا في أحدهما شهادة الشهود بمقالته تلك، واستدعوا في الآخر فتاوي أهل العلم في قائل تلك المقالة، وأطالوا في ذلك وأعرضوا، ونسبه معظم الفروعيين إلى البدعة، وكفره آخرون منهم، وأجمع المتألبون عليه أنه لا يتم لهم الغرض من هذا العمل إلا بفتيا ابي الحجاج المكلاتي (49) وقالوا هو لا شك عدوه المناصب له، وسيغتنم هذه الواقعة للظفر به والنيل منه، فتوجهوا بالرسمين إليه [سائلين حكم الله فيه] واثقين منه بأنه يوجب قتله أو معاقبته العقوبة الشديدة [فلما نظر فيهما] لم يتوقف عن تمزيقها وإعدامهما البتة وأنحى على الساعين [في ذلك بأشد اللوم وبالغ في] توبيخهم وتقريعهم ونال منهم اقبح منال ثم قال لهم : يا سيئي النظر [وقليلي العقل تعمدون] إلى أجل شيوخكم وأشهر علمائكم وقد علمتم صيته في الآفاق بأنه [وقف حياته] واشتهر طول عمره في خدمة السنة وعلوم الشريعة حتى صار من أئمتها [والسابقين] في ميدان المعرفة بها، وخوضه أبدا انما هو مع جلة حملتها وعظماء نقلتها [من عهد الصحابة] رضوان الله عليهم إلى عصرنا هذا وتتعرضون إليه مثل هذا السعي القبيح فما [الذي] تفعلون غدا أو بعد غد معي أو مع أمثالي ممن لا يعمر مجالسه أبدا إلا بالنظر مع القدرية والخوارج والشيعة

---

(47) الشفا : 3

(48) راجع الذيل والتكملة 8 : 173 — 175.

(49) ترجمته في الذيل والتكملة 8 : 432 — 434.

والرافضة والمعتزلة والكرامية والاباضية والامامية والبراهنية وغيرهم من الفلاسفة وأهل الأهواء والبدع الحائدين عن مذاهب أهل السنة ولا [يشتغل إلا] في ضرب بعض أقوالهم ببعض ! اذهبوا خيب الله سعيكم وأراح الاسلام والمسلمين منكم، فانقلبوا خائبين وأكبروا ذلك من فعله وعظم تعجبهم منه، وعمر الناس بهذه الأحدوثة الحسنة [مجالسهم] مدة طويلة، وسكن قلق أبي الحسن ودفع الله عنه بفعل هذا الشيخ ما كان يتوقعه من سوء مغبة ذلك التشنيع الرديء وحفظت هذه الفعلة مأثرة كبيرة من أبي الحجاج هذا وكثر تناقل الناس إياها وشكر أهل العقل والفضل إياه عليها» (50).

حصل هذا في مراكش من أجل كلمة لا تنافي التنزيه، أما في سبتة بلد ابن خمير فقد كان يصدر عن بعض القصاص في مساجدها ما يؤدي إلى إنكار البعث ويمر دون مطالبة، فمن ذلك ما يذكره ابن خمير في ص 104 قال : «ومنهم من قال إنه ما مَات عزير ولكن غشي عليه بدليل أنه لو مات لم يحي بعد، وهذا هو التنصيص على إنكار البعث واستبعاد إحياء الموتى وتكذيب الباريء تعالى حيث قال : ﴿فأماته الله مئة عام ثم بعثه﴾ وقد قال كلب من كلاب القصاص هذه القولة في هذا البلد على المنبر فما أنكروها عليه ولا طولب بها». (51)

قلت آنفا إن كتابة ابن خمير تتسم بالجدال والحجاج على طريقة الأشاعرة، وهذا يبدو بوضوح في تأليفه الذي نعرض إليه بعد قليل أما «تنزيه البيان» فإنه أدخل في تفاسير القرآن الكريم منه في علم الكلام، وهذا ما يصرح به في المقدمة إذ يقول : «أما بعد فإني قد استخرت الله تعالى في إملاء شرح بعض آيات رغب في إملائها بعض الطلبة المحتاطين على الدين» (52)
ومن هنا يمكن عد ابن خمير في طبقات المفسرين، ونحن نتفق مع الأخ الدكتور الداية في قوله : «وقد كشفت كتابة المؤلف ــ رحمه الله وأثابه كل خير ــ عن معرفة بعلوم القرآن والحديث وبسطة يد في التفسير وما يتبعه، ومعرفة واسعة باللغة والأدب والأخبار والسير والتواريخ ونفوذ في أمور الفقه

(50) الذيل والتكملة 8 : 433 ــ 434.
(51) تنزيه الأنبياء : 104.
(52) نفســه : 23.

والأصول والعقائد وقدرة على المناقشة واتقان الأخذ والرد والاستقراء والاستنتاج العلمي العام والفقهي والأصولي». [53]

إن اجتهادات الدكتور هنا في تقييم شخصية ابن خمير جاءت مطابقة تمام المطابقة للحلى التي أسبغها عليه ابن الشعار، وقد نوهت في أول هذا الكلام بتحقيق متن الكتاب وضبطه وثمة كلمات معدودات في قراءتها نظر، وأولها قول المؤلف في الديباجة : «الحمد لله العلي العظيم العزيز الحكيم، الذي فطرنا باقتداره، وطورنا باختياره» وينبغي أن تقرأ السجعة الأخيرة هكذا : «وصورنا باختياره». فالمؤلف يشير إلى قوله عز وجل : ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ وفعل «طور» غير مسموع عن العرب وهو من الأفعال الحديثة التي أقرتها المجامع اللغوية في هذا العصر [54] وانظر قوله تعالى : ﴿وقد خلقكم أطوارا﴾.

وفي ص 35 وردت هذه العبارة : «ولم يحسن للآخر بعين ما ألزمه الله مما يتعين للعبيد على السادة» والصواب حسب السياق أن تقرأ : «بغير ما ألزمه الله».

وفي ص 50 ورد ما يلي : «والقصة بحمد الله أشهر وأظهر من أن يتقول فيها زور، أو يدلى بغرور» والصواب يدلّى بغرور، وهو من قوله تعالى : ﴿فدلاهما بغرور﴾ ومعنى دلاه بغرور أوقعه فيما أراد من تغريره.

وفي ص 52 ورد ما يلي : وعلى هذا مضت العادات وتناظرت الحكايات والصواب : «وتناصرت» وهي عبارة المؤلف في ص 54 «وبذا تناصرت الآيات» ومعنى تناصرت الآيات والحكايات : نصر بعضها بعضا أي أيد بعضها بعضا.

وجرى المحقق على تمييز ما يرد في الكتاب من القرآن الكريم وقد ورد في ص 58 : ﴿قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ بدون تمييز، وهي من سورة التوبة.

وفي ص 75 ورد ما يلي : «فكان منه في درج المذكرة» والصواب : في درج المذاكرة، أي في أثنائها.

(53) نفسه : 13.
(54) راجع المعجم الوسيط.

2. مقدمات المراشد إلى قواعد العقائد :

هذا هو الكتاب الثاني الذي وصل إلينا من تأليف ابن خمير، وهو في علم الكلام أو العقائد كما يدل على ذلك اسمه، والنسخة الوحيدة المعروفة من هذا الكتاب توجد في خزانة القرويين وتقع في أول مجموع من تحبيس المنصور السعدي، وثيقة التحبيس مسطرة على الورقة الأولى وفي أعلاها توقيع السلطان المذكور، وفي آخرها تاريخ التحبيس وهو عام ثمانية وألف هجرية، ونصه : «المسطر أسفله صحيح. وكتب بخط يده عبد الله ووليه أحمد المنصور بالله أمير المومنين ابن أمير المومنين ابن أمير المومنين الحسني خار الله له ولطف به وبجميع المسلمين» [55] وتاريخ التحبيس هو «شهر ذي قعدة من عام ثمانية وألف» أما تاريخ النسخ فيعود إلى القرن التاسع الهجري والناسخ هو سالم ابن أحمد بن منصور العكرمي، ويبدو أن له صلة بالفقيه الأصولي أبي عبد الله العكرمي شيخ شيوخ ابن غازي المكناسي والمتوفى سنة 842 هـ. [56]

تعتبر «مقدمات المراشد» من أقدم تآليف المغاربة في علم الكلام وهي من أهمها إن لم نقل إنها أهمها على الاطلاق، وهي عبارة عن عقيدة وسطى تبتعد عن الأطناب وتقترب من الايجاز كما يقول ابن خمير في الديباجة ولكن الأطناب والايجاز أمران نسبيان يختلفان باختلاف العصور فالعقيدة في نظر مؤلفها ووقتها عقيدة وسطى، ولكنها تبدو لنا الآن من المطولات إذ انها تتألف من 100 صفحة بالخط الدقيق ويمكن أن تخرج مطبوعة في أكثر من 200 صفحة.

لقد فخر ابن خمير بأن هذه العقيدة الوسطى التي ألفها تتميز على مثيلاتها وسابقاتها بالتحقيق والتدقيق ثم قال : «فإن قيل : وكيف تستتب لك هذه الدعوى وقد تقدمك إليهما فحول العلماء ورؤساء الطريقة كالشيخ أبي الحسن في لمعه [57] والاسفرايني في مخلصته [58] والقاضي أبي بكر في

(55) مخطوط القرويين رقم 719 وانظر فهرس القرويين 2 : 329.

(56) ترجمته في درة الحجال 1 : 295 وفهرس ابن غازي : 65، 66، 67، 84، 113.

(57) يقصد كتاب «اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع» لأبي الحسن الأشعري وهو مطبوع بتصحيح وتعليق الدكتور حمودة غرابه — مصر 1955.

(58) من كتبه المطبوعة : «التبصير في الدين»، و«تمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين»، وهو منشور بعناية السيد محمد زاهد الكوثري، وله «المختصر في الرد على أهل الاعتزال والقدر» ولعله المقصود هنا وحينئذ تقرأ الكلمة كما يلي : وملخصه.

تمهيده [59] وابن فورك في عمدته [60] وإمام الحرمين في إرشاده [61] ونظاميته [62] إلى غير ذلك من عقائد المتأخرين، فإن أطنبت فقد أطنبوا، وإن اختصرت فقد اختصروا وهم هم فإيش هذا التوسط الذي تدعيه ؟

فالجواب أن نقول [إني] ما اعترضت به إلا لأن القوم كبار راسخون في العلم والكبار إذا قصدوا النزول لم يتأت لهم كل التأتي فإن همتهم فوق النزول فشيمتهم لا تواتي الكلام الدون كما قال أبو الطيب :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل [63]

وبرهان ذلك أن ما منهم من ألف متوسطا إلا وأعمق فيه من ثلاثة أوجه : أحدها ما اعتادوه من اللفظ العويص الذي اصطلحوا عليه مع أقرانهم ونظرائهم.

والثاني ما أورده من شبهات يكل عنها فهم الشادي، فما ظنك بالمسترشد البادي.

والثالث أنهم يقصدون الايجاز في اللفظ بجوامع من الكلم ليصغر حجم التأليف ويسهل للمتعلمين، وقصدهم بذلك الرفق فإنه علم صعب الانقياد ومائدة قلما يحضرها طفيلي كما قال أبو القاسم الجنيد رحمه الله :

الطرق شتى وطريق الحق واحدة والسالكون طريق الحق أفراد

فلو أن المبتدي عندما يقصد التعليم اطلع على كتاب الشامل [64] أو ما هو أبسط منه فقيل له : لا تعرف ما يلزمك حتى تفهم هذا الديوان لنفر من أول وهلة... فهذا حرسك الله عذري عن هذا المقصد في هذا التأليف المعتمد، فهو إن شاء الله تجنب هذه الثلاثة التي تقدم ذكرها بإيراد دليل كاف يشابه

---

(59) طبع في القاهرة سنة 1947 ثم في بيروت سنة 1957.

(60) انظر بروكلمان (ملحق 1 : 277 ــ 278)

(61) يعني كتاب «الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد» لإمام الحرمين الجويني وهو مطبوع في مصر بتحقيق الدكتور محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد.

(62) يقصد «العقيدة النظامية» وقد قام بطبعها الشيخ محمد زاهد الكوثري عن نسخة برواية أبي بكر ابن العربي عن الغزالي عن الجويني المؤلف.

(63) من قصيدة المتنبي التي أولها : إلاَمَ طماعية العاذل ولَا رأي في الحُبّ للعاقِل.

(64) هو كتاب «الشامل في أصول الدين» لإمام الحرمين، والمطبوع منه جزآن أحدهما نشره كلوبفر في القاهرة سنة 1960 والآخر نشر في الاسكندرية بإشراف النشار سنة 1969.

الضروريات ويدفع الاعتراضات مع الاعتراف لأولئك الجلة بالمكان الحظي والمنصب السني» [65].

وهذه الفقرة تشعرنا منذ البداية أننا أمام متكلم مقتدر مطلع على الأصول والأمهات في علم الكلام متمكن منها غاية التمكن، وبلغ من تمكنه أنه يقرب البعيد من أفهام المتعلمين ويسهل العسير على أنظار المبتدئين، وما ذكره من أن كبار العلماء لا ينزلون في التأليف والتعليم إلى مستوى المبتدئين نجد صداه عند ابن البناء المراكشي وذلك في قوله :

قصدت إلى الوجازة في كلامي
لعلمي بالصواب في الاختصار
ولم أحذر فهوما دون فهمي
ولكن خفت إزراء الكبار
فشأن فحولة العلماء شأني
وشأن البسط تعليم الصغار [66]

يشتمل كتاب ابن خمير هذا على تسعة أبواب : بابان تمهيديان وهما : باب الكلام في الرد على من عاب هذا العلم وطعن فيه من أهل الزيغ والتعصب بالجزاف، وقد عرض في هذا الباب أصناف العائبين والطاعنين وذكر دوافعهم إلى ذلك ورد أقوالهم واحتج بأئمة المذاهب، فالشافعي ألف كتاب القياس في علم الكلام ورد فيه على الملاحدة، وصنف كتابا في الرد على البراهمة، وصنف أبو حنيفة فيه وفي الرد على أهل الأهواء : كتاب العلم والمتعلم وكتاب الوصية إلى عثمان الهذلي، والامام مالك اختلف إلى ابن هرمز في تعلم علم الكلام خمس عشرة سنة ولكنه لم يؤلف فيه.

وقد دافع ابن خمير عن علم الكلام دفاعا مستفيضا، وهو يستعمل في هذا البابَ وغيره أسلوب الحوار ولذلك يكثر في كلامه مثل أسلوب «فإن قيل.. قلنا» ومن أطرف ما ورد في هذا الباب قوله يصف محنة من يقبل على تعلم علم الكلام وما يتعرض له من صد عن سبيله وتوجيه إلى غيره قال : «فلقد رأينا غير واحد يكون بينهم آمنا وادعا فعندما يبدأ قراءة هذا العلم يثبون إليه كالأفاعي

---

(65) مقدمات المراشد : 1 و

(66) نيْل الابتهاج : 67.

الصغر ينتصحون إليه ويحذرونه من تعلم هذا العلم ويحضونه على المنطق والتعاليم من خواص الاعداد والهندسة والطب وغير ذلك من أنواع التعاليم وهؤلاء صنف الزنادقة/وصنف آخر من المقلدة الذي سمع فقام يحضه على تعلم العربية والأدب والخط ليكون كاتبا لفلان فينال من دنياه / أو على قراءة كتب الفقه والتوثيق ليكون مسددا في بعض الكور في أكل الرشا ويركب المطايا / أو على قراءة العدد وتعلم الرسوم ليكون عاملا فيستأصل الرعية / أو ينظر في كتب الباطن والعلوم العالية على زعمهم فيستبدل القشور باللب المصون والسر المكنون ويعالج ذلك بالمجاهدة والخلوة والعزوف عن الدنيا وترك الأخلاق الذميمة والتحلي بالأخلاق الشريفة حتى تفيض عليه أنوار الربوبية وتنكشف له أسرار وينفلت طائر الروح من قفص الجسد فيلحق بالاله كما كان أول مرة وهذه أقوال غلاة الفلاسفة وغلاة الباطنية القرمطية المستترين بالتصوف. ومنهم صنف يسنده إلى ركن الدين فيقول له : عالج حروف القرآن بالتجويد وشواذ القراءة وحفظ كتب الخلف تكن أستاذ الوقت وتستملك الملوك وتركب رقاب الكل.

أو اركب الحديث واعرف الرواة وبلادهم وأنسابهم وعدالتهم وتجريح من جرح منهم وما ضعفه ابن معين، وصححه الدارقطني وابن سيرين تكن من الأستاذين المدرسين، وتضرب لك آباط الابل من الصين وتهابك الرعية وتحتاج إليك الملوك وتنال شرف الدارين.

ولتعلم أن هذا الصنف أضر على الضعيف من كل من تقدم ذكره فإنه آواه إلى ركن الدين ودعائم المسترشدين وهو مع ذلك قد لبس له الحق بالباطل فأتاه من حيث لا يشعر، فأما الحق فهو أن أمره بمعالجة نقل حروف من الكتب والأخبار عن الثقات ونقلها إلى الغير، وأما الباطل فهو أن أمره بفرض الكفاية الذي لا يلزمه ونهاه عن فرض العين الذي يلزمه... ثم قد قيض الله تعالى لتلك الحروف والأخبار نقلة ثقاة حصلوا التحقيق من فروض العين أولا ثم بعد ذلك جابوا البلاد وقطعوا الوهاد حتى حصلوها وحصنوها وتحملوا عبئها عن الغير جزاهم الله عنا خيرا» (67).

(67) مقدمات المراشد : 3 ظ.

أوردنا هذا النص على طوله لدلالاته المتعددة فهو يشير إلى موقف بعض معاصري ابن خمير وبلدييه من علم الكلام، وتعرضهم للطلبة الذين يقصدونه لأخذ هذا العلم، كما أن النص يشير إلى مراتب العلوم ومزاياها الدنيوية والأخروية يومئذ.

والباب التمهيدي الثاني هو باب الكلام في معنى العاقل والعقل والتكليف والمكلف وهو يتضمن فصولا في الكلام على أوائل المعتقد وقد تدرج فيها إلى الوصول إلى نتيجة وهي « أن العلم بالله واجب، وهو لا يحصل إلا بالنظر والاستدلال، وما لا يحصل الواجب إلا به فهو واجب» (68).

وبعد هذا ينتقل إلى أبواب المقدمة وهي سبع، فالمقدمة الأولى تتضمن إثبات العلم بحدوث العالم، والمقدمة الثانية تتضمن العلم بإثبات صانعه تعالى والرد على النفاة المعطلة من أوجه مختلفة والمقدمة الثالثة في نفي التشبيه بين الخالق تعالى وبين خلقه، والمقدمة الرابعة في الاستدلال على وحدانية الباريء في ملكه وانفراده بأفعاله واستحالة الشركاء له تعالى، والمقدمة الخامسة في إثبات الصفات المعنوية للباريء تعالى، والمقدمة السادسة فيما يجوز له تعالى من أحكامه في خليقته، وهي أطول المقدمات لأنها تتضمن مباحث تتعلق بالمسائل التي كانت سببا في افتراق الفرق، والمقدمة السابعة والأخيرة تشتمل على السمعيات التي يجب الايمان بها والعمل بما يكتسب من أوامرها ويجتنب من نواهيها.

إن التصنيف الذي سلكه ابن خمير في هذه المقدمات وترتيبها ومادتها يساير ما هو موجود في الارشاد للجويني على سبيل المثال.

أما ما يتميز به فهو أسلوبه الرشيق وعبارته اللطيفة وانتقاده القوي لأهل الأهواء في زمنه وبلده سبتة، فقد كانت هذه المدينة السليبة ملتقى لتيارات متعددة، مثلها في هذا مثل مدينة المرية في الأندلس، وكلتاهما كانتا فرضتين مشهورتين على البحر المتوسط وقد كان في سبتة على عهد ابن خمير من يشتغل بالمنطق والفلسفة، ولمقاومة هؤلاء أنشأ الشاري مدرسته السنية المعروفة (69).

(68) نفسه : 7 ظ

(69) الذيل والتكملة 8 : 200.

وفي هؤلاء يقول ابن خمير في معرض مجادلتهم : «إن قالوا تعلمه بدليل طالبناهم به فلا يجدون إليه سبيلا سوى مجرد دعوى لقفوها من النصارى والقرامطة والفلاسفة في حكايات سطرها إخوان الصفاء في رسائلهم وابن سينا في شفائه كحكاية حي ابن يقظان وأبسال وسلامان وكونه تكون من تفاحة تطورت في بركة في جزيرة من جزائر البحر، وخرج منها شكل إنسان، وكانت بإزائه تفاحة أخرى في الماء فيها روح فقام ذلك الروح بجسد ذلك الانسان، ثم أرضعته غزالة، ثم ماتت الغزالة، فأخذ يطلب المحرك لها في جوفها حتى بلغ قلبها فشقه، فوجد فيه فراغا فقال هنا كان وذهب، ثم أخذوا يدرجونه في أطوار الخلق والخالق حتى ألحقوه بالاله فصار هو في خرافات عجائز لو أن قاصا من قصاص [الأساطير] ذكرها في [التهاويل] لصار أضحوكة لعوام العقلاء فكيف بحذاقهم، فنعوذ بالله من الخذلان ونقول إنهم لما حكوا هذه الخرافات لوحوا عليها بشبهة يخدعون بها فلا والله ما هي سوى مجرد خبر على جهة ذكر القدماء ان حي بن يقظان اتفق له في جزيرة كذا ثم اختلفوا في بداءة أمره، فمنهم من قال إنه تكون في تفاحة ومنهم من زعم انه كان ابن زنالف في تابوت وألقي في البحر فلفظه البحر في الجزيرة، وهي طريقة هؤلاء المساكين في جميع ما يحكونه عن الأوائل في المعتقدات ثم يدعون مع ذلك أنها براهين قاطعات» (70).

إن ابن خمير لا يدعو هؤلاء إلا بحثالة الفلاسفة، وقد ختم كلامه معهم مرة بقوله : «فأين تحيدون يا حثالة الفلاسفة ! يا خصماء الله على خلقه ! لالعا لعثرتكم !» (70 م).

وكان في سبتة أيضا بعض غلاة المتصوفة الذين يدعون الإلهام ويقولون بالحلول، ومن المعروف أن ابن سبعين وجد في هذا العصر لدى هؤلاء أشياعا وأتباعا ومكث بينهم أيضا ما قبل أن يطرده والي سبتة (71) وقد أشار ابن خمير إلى هؤلاء في كتابه «تنزيه الأنبياء» ورد عليهم في هذه المقدمات فمن ذلك

(70) مقدمات المراشد : 17 و

(70 م)نفســه 7 و

(71) روى البادسي في المقصد أن ابن سبعين وصل إلى سبتة وتحلّى فيها بالتصوف فخطبته امرأة موسرة من أهل سبتة فتزوّجها وبنت له زاوية في نفس داره فأقام بها إلى أن نفاه ابن خلاص.

قوله في مدعي الإلهام : «والقائلون به قوم لا خَلاقَ لهم، وهم من الصنف المدعي التصوف حيلة على أموال العوام من الرجال والنسوان، فيقول أحدهم : جعت وواصلت والتزمت كسر بيتي فالهمني الله معارف بأحديثه ثلج بها صدري وأراحني من كدس النظر في علم القشور ــ يعني ما نحن بسبيله ــ ويدعي أعلى مقامات المعرفة التي أشار إليها أرباب القلوب رضي الله عنهم، ويستشهد بما جاء عنه عليه السلام : من أخلص لله أربعين صباحا الحديث، فإذا طولب بالعبارات حاص عنها بأن يقول : هي أعلى وأشرف من أن يفصح بها وأيضا إن أفهامكم لا تصل إليها فيموهون بها على العوام ليشتروا بها من دنياهم ما يبيعون به أخراهم، فأول ما يطلب به هؤلاء السفلة ردهم على كتاب الله تعالى فيما تضمن من الأمر بالنظر وما أثنى به على المتدبرين والمتفكرين والمعتبرين والمتوسمين وما وعدهم به من المثوبات ورفيع الدرجات، وما أوعد به تاركي النظر من العقوبات، فلئن كانت الحقائق تحصل بالالهام على زعمهم فلا فائدة في الحض على التدبر من الله تعالى وأقل ما يلزم هؤلاء الملاعين تعطيل كتاب الله والرد عليه (72).

وقد عاد في موضع آخر إلى الشكوى من هذه الطائفة فقال : «وما أشر ما دهينا في هذا الوقت المنكوب بهؤلاء الدببة الاجلاف فإنهم فيهم أغمار، وغوغاء غمار، فبينما رجل في حرفته وعلاجه ومهنته ممتحن بضيق المعيشة وكلف البطنة إذ قرع مسمعه أن قوما انخلعوا انخلاعة من رق الاغلال وقشور الأعمال، إلى أعلى المقامات والأحوال، والحب والوصال واتصفوا بالعظمة والجلال، والتحققوا بالاله تعالى لحوق وصول واتصال، ثم اتخذوا الوجود دولابا والناس دوابّا يتحكمون في أموالهم، ويمكرون بآلهم، لا يعثر عليهم الحكام، ولا تقام عليهم الحدود، فعند ذلك يحلق رأسه ويلبس خيشه، وينشد :

لعمرك ما المعيشة بالتأني ولكن ألق دلوك في الدلاء (73)

ثم يثب وثبة ذيب غنم أو ضبع قرم، فماهي عنده إلا طفرة من صحاح الفرش إلى بطنان العرش فإنا لله وإنا إليه راجعون، وسيعلم الذين ظلموا أي

---

(72) مقدمات المراشد : 7 ظ

(73) ورد هذا البيت غير منسوب في أساس البلاغة هكذا :

وليس الرزق يأتي بالتمني ولكن ألق دلوك في الدلاء

منقلب ينقلبون ولولا الخروج عن المقصود لأسمعتك من بعض مثالبهم الخسيسة، ولكن إذا أردت النتف من سماعها فقد ألفت في ذلك كتابا على حيلهم سميته بالوصية [74]».

وعرفت سبتة في عصر ابن خمير جدلا كبيرا حول كرامات الأولياء، فقد كان من بين أهلها من ينكر مسألة الكرامات أخذا بقول أبي إسحاق الشيرازي وابن أبي زيد القيرواني [75] ويبدو أن هذا الجدل انتقل إلى سبتة من قرطبة، وقد ساق القاضي عياض خبر هذا الجدل في ترجمة محمد بن موهب القبري القرطبي تلميذ ابن أبي زيد وأحد قدماء المتكلمين بالأندلس، قال أبو الفضل : «كان أبو بكر هذا لتعلقه بهذه العلوم النظرية الغريبة بالأندلس مشنوءا عنه كثير من فقهاء قرطبة لا سيما من لم يتعلق منهم من العلم بغير الفقه ورواية الحديث ولم يخض في شيء من النظر، وكان ابن عون الله شيخ المحدثين في طائفة من أصحابه منهم أبو عمر الطلمنكي تلميذه قد أغروا به، فجرت بينه وبينهم قصص ومحاربات في مسألة الكرامات، فإن ابن موهب كان يذهب فيها مذهب شيخه أبي محمد بن أبي زيد في إنكار الغلو فيها، وكان أولئك يجيزونها ويتسعون في رواية أشياء كثيرة منها، وكان يثبت نبوة النساء ويقول بصحة نبوة مريم وبإحالة بقاء الخضر أبدا، فجرت بينهم في هذه المسائل فتن لا سيما عند موت ابن عون الله.

وقد تداركها المنصور ابن أبي عامر فسير جماعة من الطائفتين من الأندلس إلى العدوة، فيهم ابن القبري هذا مع طائفة من أضداده. وكان الأصيلي وابن ذكوان في طائفة من نحارير العلماء في حزب القبري وجماعة من الفقهاء والمحدثين في الحزب الآخر، فخرج القبري إذ ذاك إلى العدوة وبقي فيها مدة أخذ عنه بها، وأراه أقام ببلدنا مدة وبها أخذ عنه اسماعيل ابن حمزة كتبه وكتب الشيخ أبي محمد ابن أبي زيد» [76].

---

(74) نفسه : 16 ظ.

(75) انظر مقدمة ابن خلدون : 105، وبحثا في الموضوع للأستاذ عمر حمادي في مجلة دراسات إسلامية ع 4 من ص 35 إلى ص 60.

(76) ترتيب المدارك 7 : 189 ــ 191.

ونستفيد من آخر هذا النص الطريف أن القبري هو مؤسس مدرسة المتكلمين في سبتة، وكان تلميذه اسماعيل المذكور أول السبتيين الذين عنوا بعلم أصول الديانات، ويبدو أنه كان ـــ كشيخه القبري ـــ لا يقول بالكرامات، ونظن أن كتاب «الحجة في إثبات كرامات الأولياء» لأبي الربيع سليمان بن سبع وكتاب «دعامة اليقين، في زعامة المتقين» لأبي العباس العزفي معاصر ابن خمير هما من آثار الجدل المذكور.

فأما كتاب الحجة لابن سبع فتوجد منه نسخة بخط مشرقي منتسخة في عام 875 هـ وقد أورد فيه هذا المؤلف السبتي أدلة وحججا في إثبات الكرامات من الكتاب والسنة والاجماع وسرد أمثلة كثيرة من الكرامات المروية لعدد من السلف الصالح.

ونجد منذ الصفحات الأولى ما يدل على صلة ابن سبع بحزب أبي عمر الطلمنكي وذلك في الرواية التالية : «قال أحمد بن محمد الطلمنكي : وجدت في كتاب من كتب الشيخ ابن محارب المحبسة في الجامع بسرقسطة في آخر الكتاب :

بسم الله الرحمٰن الرحيم

دخلت على أبي علي حسن بن فتحون الزاهد يعرف بالخراز في يوم عيد زائرا في جماعة من أصحابنا فسألناه عن حاله وقلنا له : يرحمك الله ! لقد رأينا منك عجبا، فقال : وماذا رأيتم مني من العجب ؟ فقلنا له : تكون الحلقة كبيرة أكبر ما تكون فيتحدث الرجلان ومن قرب منهما لا يسمع حديثهما وأنت ناء عنهما وتسمع ما يقولان، فقال الشيخ رحمه الله لأحدثنكم في ذلك حديثا :

حدثني محمد بن اللباد عن أحمد بن أبي سليمان عن سحنون عن عبد الرحمان ابن القاسم عن مالك رفع الحديث إلى النبي (ﷺ) أنه قال : من تحرى الصدق في صغره رزق حدة السمع في كبره... فرزقني الله بركة ذلك، فأنا أحد الناس سمعا، ثم قلنا : يرحمك الله ! لقد حدث في بلدكم حدث، فقال لنا وما هو ؟ فقلنا : إنكار الكرامات لأولياء الله، فتأوه الشيخ حتى كادت

تذهب نفسه وقال لنا : إنا لله وإنا إليه راجعون على هذه المصيبة يعمدون إلى فرع من فروع الطاعة فينكرونها» (77) ثم حدثهم الشيخ بكرامة شهدها وهو يخدم الصالحين سعدون بن أحمد الخولاني وحسين بن محمد القلانسي بقصر المنستير.

وأما «دعامة اليقين» لابن العباس العزفي الذي طبع أخيرا فإنه كسابقه ألف للدفاع عن إثبات الكرامات ولكنه يتميز عنه بأنه يشتمل ـــ إلى جانب الكرامات المأثورة عن السلف ـــ على مائة وخمسين من كرامات الولي الصالح ابن يعزى (78).

أما صاحبنا ابن خمير فقد خصص فصلين من كتابه حكى فيهما أقوال المثبتين والمنكرين للكرامات وشرح معنى الكرامة وذكر الفرق بينها وبين المعجزة وأورد قول أبي يزيد البسطامي : المعجزة زق عسل مليء ثُمَّتَ رشح فنحن نلتمس ما حوله، وقد أورد العزفي هذا القول بصيغة أخرى (79).

وابن خمير يتفق مع ابن سبع والعزفي في انتقاد المنكرين للكرامات ويلتقي معهما في ظهورها على أيدي عدد من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

قال : «وأما في هذه الأمة فقد طم الوادي على القرى فإنه ما يكاد أن يكون أحد من الصحابة رضي الله عنهم إلا وقد ظهرت على يديه الكرامة بخرق العوائد كأبي بكر الصديق في قصة الطعام وعمر في قصة سارية وعثمان في قصته عن أنس بن مالك وعلي في قصة النهر وأبي هريرة في قصة حراسته التمر حين قبض على الجن إلى غير ذلك مما لا يحصى وكذلك في التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين» (80).

ثم يلتقي مع معاصره العزفي في الاشارة إلى كرامات أبي يعزى، قال : «وقد أدركنا أبا يعزى رحمه الله وصحة الكرامات على يديه بالتواتر» (81).

---

(77) كتاب الحجة : 4، 5.

(78) راجع «دعامة اليقين»، وقد ذكر التادلي في «التشوف» بعض كراماته ونقل بعضها ابن عبد الملك المراكشي في «الذيل والتكملة».

(79) مقدمات المراشد : 34 ظ. ودعامة اليقين : 28 ـــ 29.

(80) مقدمات المراشد : 35 و

(81) نفسه : 35 و

ويختتم ابن خمير هذا الفصل بقوله : «فقد وضح إثبات الكرامات جوازا في العقل ووقوعا في النقل فما أولى الغبي بالسكوث لو عقل فإنه أحسن أحواله» (82).

إن مقدمات ابن خمير لا تتميز بكونها تقدم العقيدة الاشعرية بأسلوب يتوخى الاقناع فحسب، وإنما تتميز أيضا بكون مؤلفها يعرض لأقوال بعض الزنادقة من أهل بلده ووقته، ومن ذلك ما نجده في الفصل الذي خصصه لاعجاز القرآن وعجز العرب عن معارضته وها هو يرد على قولة سمعها في بلده : «فإن قيل : ولعله منع بالسيف، فلولا السيف لعورض، قلنا : يا سبحان الله، وأي سيف كان في مبدأ أمره، وهو قد أتاهم بالموعظة الحسنة وأصحابه يطردون إلى البلدان ويُحَلَّون عن المناهل، ويعَذبون من أجله.

وأنت يا هذا أراك تقول هذه القولة التي أجمعت الأمة على كفر من قالها واستباحة دمه وماله ولم يمنعك السيف فهلا قلت عوض هذه القولة آية، وإن كان يمنعك السيف فهلا رحلت إلى [بلاد] أدفنش وجئت بسورة من مثله ولو بعدد كلمات سورة الكوثر حتى تريح الكل أو تحل من أعناقهم ربقة الاسلام.

ولعمري لقد قال لي هذه القولة غير واحد، ولقد قالها فاجر من الفجرة هنا في جمهور من الناس فسكتوا عنه إما غير منكرين أو غير مكترثين، فيا لله من عدم الزاجر وقلة الغيرة في الدين، على أن هؤلاء الفجرة إذا زجروا قالوا : إنما حكينا فيتراوغون بالحكاية عن السيف ﴿قاتلهم الله أنى يوفكون﴾ (83)».

والقولة المذكورة هنا تشبه قولة أبي العلاء المعري وهي :

تلو باطلا وجلو صارما وقالو صدقنا فقلنا نعم

ونذكر بهذه المناسبة أن ابن خمير ذهب مذهب من قال إن أبا العلاء قصد معارضة القرآن الكريم، وأورد شيئا مما ينسب إليه، ولعله من كتاب «الفصول والغايات»، ولكنه لا يوجد في القسم المطبوع من هذا الكتاب قال ابن خمير : «ولم يسمع من ذي همة منهم حرف ولا كلمة فضلا عن آية إلا

(82) 35 و.
(83) نفسه : 38 و.

ما كان من ترهات مسيلمة حين قال : الفيل، وما أدراك ما الفيل إلى آخر ما قاله، وكذلك في المتأخرين المعري أخزاه الله، قصد المعارضة بهذيانات تتنزه الآذان عن سماعها ولكن نشير إلى شيء منها، وهو قوله : جاءك الملوك، ثم على نعش جملوك، وفي قبر أهملوك، وأنت فيه مفارق للحوباء، ومنها : ماش، يندرج في حماش، وينخرط في لاش، ومنها : أعظمك إعظام البيت، في الجمعة والسبت، أنت يا رب الدوحة والقضيب. إلى غير ذلك من هذا الرث الخسيس، فيا للعجب من خذلان من يقول مثل هذا في معارضة القرآن مع قوله في شعره :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر

إلى قوله :

ما سرت إلا وطيف منك يصحبني سيرا أمامي وتأويبا على أثري

وقوله في الفرند :

ودبت فوقه حمر المنايا ولكن بعدما نسجت

إلى غير ذلك من عجائب نثره ونظمه، فسبحان من يقلب القلوب كيف يشاء» (84).

ومما يستحق أن نقف عنده في «مقدمات» ابن خمير الفصل الذي عقده لما يجوز على الأنبياء عليهم السلام فقد أشار إلى عدد من هذه الجائزات وذكر الخلاف الواقع حول بعضها وختم هذا الفصل بما يلي : «واعلم أيها المسترشد أن الاضراب عن هذه الأمور كان أولى بك لولا غلاة من الجهال المتعصبين في قصد التنزيه لهم بغير علم حتى يريدوا أن يخرجوهم من ربقة العبودية ويلحقوهم بحال الربوبية كما تقدم عند ذكر مذاهب اليهود والنصارى وغلاة الباطنية» (85).

وقد حذر في فصل آخر من النظر في كتب الأباطيل في قصص الأنبياء كما حذر من بعض المفسرين لظاهر القران من غير بناء على أصل صحيح وأشار إلى القصاصين الذين «يسطرون في قصص الأنبياء عليهم السلام قواصم

(84) نفسه : 38 ظ، وانظر بيتي المعري في ديوانه «سقط الزند».
(85) مقدمات المراشد : 41 و.

تهوي بضعفاء المقلدين إلى ضحضاح سجين» مثل ما اختلقوه من قصص داود وسليمان ويوسف ونبينا محمد عليه وعليهم السلام ثم قال مسميا كتابه في الموضوع : «ولولا التطويل وإخراج التأليف عن المقصود لأسمعتك في هذه القصص كتابا ترجمته : تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء. فتأمله تجد فيه شفاء صدرك إن شاء الله» (86) وهكذا عرفنا أن كتاب «تنزيه الأنبياء» سابق في التأليف على كتاب «مقدمات المراشد».

إن لهذه «المقدمات» ميزتين بارزتين : أولاهما دلالتها على معارف مؤلفها وعلومه، وثانيهما أنها تمثل حلقة متميزة في تاريخ علم الكلام أو أصول الدين بالمغرب.

فأما الميزة الأولى فإنها تتجلى في توسع ابن خمير في آفاق اللغة وتشبعه بأساليب الكلام، كما أنها تتمثل في استظهاره واستحضاره للقرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي، فهو كثير الاستشهاد بالآيات والأحاديث والأبيات، وقليل الاستشهاد بأقوال علماء الكلام وهو يأتي بها مصوغة في قالبه الخاص، ولهذا نجد نثره نمطا واحدا من أول الكتاب إلى آخره، وهو نثر يغلب عليه الطابع الأدبي، بل إنه أشبه بالنثر الفني منه بالنثر العلمي، ومن الطريف أنه يستعين على تقريب معانيه أحيانا ببعض الأشعار الأندلسية؛ فقد ذكر أن عامة المسلمين في عقائدهم على ثلاثة أصناف، وبعد أن عرف الصنف الأول والصنف الثاني قال : «الصنف الثالث وهم قوم قلدوا آباءهم في عقائدهم من غير نظر ولا استدلال فكانوا كما قال أبو العباس :

لما رأى الخبر شيئا ليس يدركه
أحال بالدين والدنيا على الخبر» (87)

وأبو العباس هذا هو الأعمى التطيلي الشاعر الأندلسي المعروف. ويحلو له أحيانا الاسترسال في إيراد الشواهد الشعرية في المعنى الواحد فقد أورد ثمانية شواهد شعرية لشعراء مختلفين في معنى الحنين (88).

---

(86) نفسه : 41 ظ.
(87) نفسه 5و.
(88) نفسه : 9 و.

وأما الميزة الثانية للمقدمات فهي دلالتها على ما وصل إليه التأليف في علم الكلام بالمغرب، ومن المعروف أن هذا العلم لم يكن من العلوم المرغوب فيها بالاندلس والمغرب في أول الأمر ولكن العقيدة الأشعرية ما لبثت أن ظهرت بالمغرب وقد وصلت إليه في البداية من طريق القيروان، وكان ذلك بواسطة تلاميذ ابن أبي زيد القيرواني وكانت عقيدة الرسالة له أول عقيدة عرفت بالمغرب، ويعتبر أبو عمران الفاسي (ت. 430 هـ) أول مغربي عني بعلم الكلام ورحل إلى العراق لأخذه عن أبي بكر الباقلاني وفي ذلك يقول : «رحلت إلى بغداد وكنت قد تفقهت بالمغرب والأندلس عند أبي الحسن القابسي وأبي محمد الأصيلي، وكانا عالمين بالأصول، فلما حضرت مجلس القاضي أبي بكر ورأيت كلامه في الأصول والفقه مع المؤالف والمخالف حقرت نفسي وقلت لا أعلم من العلم شيئا ورجعت عنده كالمبتدىء» (89).

أما تأصيل هذا العلم بالمغرب فيعود إلى أربعة أعلام : أولهم عاش في عصر المرابطين، وهو أبو بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي (90) (ت. 489 هـ)، فقد وضع تآليف وأنجب تلاميذ نشروا الأشعرية بفاس وغيرها، وألفوا عقائد ونظموا أراجيز وصل إلينا معظمها، ومن هؤلاء أبو جعفر محمد ابن باق (91) (ت. 538 هـ) وأبو الحجاج يوسف بن موسى الضرير (92) (ت. 520 هـ) وأرجوزته التي نظم فيها الارشاد للجويني معروفة وموجودة (93) وأبو عبد الله الالبيري (94) (ت. 537 هـ)، وله في علم الكلام مؤلفات متعددة وكان من المعجبين بأبي المعالي الجويني، وأبو بكر الخفاف (95) نزيل تازى، وله شرح على إرشاد أبي المعالي وعقيدة أبي عمرو السلالجي.

---

(89) ترتيب المدارك 7 : 46 — 47.
(90) ترجمته في «ذخيرة» ابن بسام 4 : 364 و«الصلة» لابن بشكوال.
(91) ترجمته في «التكملة» : 441 و«الذيل والتكملة» 6 : 177 وبغية الوعاة : 38.
(92) ترجمته في «الغنية» : 226 و«الصلة» : 682 و«بغية الملتمس» : 492 و«التشوف» : 105.
(93) توجد منها نسخ بخزانة القرويين والخزانة العامة بالرباط وقد شرحها بعض تلاميذه وغيرهم.
(94) ترجمته في «التكملة» : 439 و«الذيل والتكملة» 6 : 193 — 195.
(95) ترجمته في «الذيل والتكملة» 5 : 651.

وثانيهم عاش في عهد الموحدين وهو أبو الحسن علي بن خليد المعروف بابن الاشبيلي [96] (ت. 567 هـ)، ومن تلاميذه وتلاميذ تلاميذه : أبو عمرو عثمان السلالجي [97] (ت. 567 هـ) هو مؤلف العقيدة البرهانية المعروفة، وأبو عبد الله محمد بن علي الفندلاوي المعروف بابن الكتاني [98] (ت. 597 هـ)، وله رجز في الموضوع، وأبو الحسن علي بن مومن [99] (ت. 598 هـ) وتنسب إليه قصيدة كبيرة في العقائد. وأبو الحجاج يوسف ابن نموي [100] (ت. 614 هـ)، كان يدرس الارشاد. وأبو الحجاج يوسف المكلاتي [101] وهو مؤلف «لباب المعقول» وأبو عبد الله ابن المناصف [102] (ت. 626 هـ) ناظم المعالم والمعلم الأول منها في علم الكلام. وأبو عبد الله محمد ابن يوسف المزدغي [103] (ت. 655 هـ) وله عقيدة مرجزة.

وثالثهم عاش في عهد الموحدين أيضا وهو أبو عبد الله محمد الرعيني [104] (ت. 598 هـ)، ومن تلاميذه أبو بكر يحيى السكوني اللبلي [105] (ت. 627 هـ)، وأبو الحسن علي بن خروف [106] (ت. 609 هـ) وله رد على أبي المعالي في الارشاد والبرهان.

أما الرابع فهو أبو عبد الله الأصولي [107] (ت. 612 هـ) ومن تلاميذه أبو عبد الله محمد بن حسن الزرهوني المعروف بابن الزق [108] وقد كان متقدما في علم الكلام وأصول الفقه.

---

(96) ترجمته في «الذيل والتكملة» 5 : 304 وله ذكر في «المن بالامامة».

(97) ترجمته في «جذوة الاقتباس» : 458 وعقيدته مختصرة جدا وقد شرحها غير واحد. وانظر تعريف المرحوم كنون به في المشاهير.

(98) ترجمته ومصادرها في «الذيل والتكملة» 8 : 331.

(99) ترجمته في «الذيل والتكملة» 5 : 256 — 264.

(100) ترجمته مع الإشارة إلى مصادرها في «الذيل والتكملة» 8 : 427.

(101) ترجمته في «الذيل والتكملة» 8 : 432.

(102) ترجمته مع الإشارة إلى مصادرها في «الذيل والتكملة» 8 : 345.

(103) ترجمته مع الإشارة إلى مصادرها في «الذيل والتكملة» 8 : 365.

(104) له ترجمة في التكملة (رقم 868) «والذيل والتكملة» 6 : 364 «وصلة الصلة» (انظر آخر السطر 8 من الذيل ص 504).

(105) «التكملة» رقم 2065 «ونيل الابتهاج» : 355 وانظر صلة الصلة.

(106) ترجمته في «الذيل والتكملة» 5 : 319 — 323.

(107) ترجمته في «الذيل والتكملة» 8 : 271 — 272.

(108) ترجمته في الذيل والتكملة 8 : 307.

وإذا كنا كما ذكرنا قبل لم نعرف شيوخ ابن خمير في علم الكلام فإننا نستطيع تصنيفه في الطبقة الثالثة التي تأتي قبل الطبقة الرابعة والأخيرة من طبقات المتكلمين في عصر الموحدين الذين كان لهم دور في ازدهار هذا العلم بالمغرب، ومن المعروف أن ابن تومرت مؤسس الدولة له عقيدة تدعى المرشدة وهي مطبوعة ولها شروح متعددة مخطوطة (109).

3. كتـــاب الوصيـــة :

هذا كتاب ألفه ابن خمير في حيل منتحلي التصوف وقد أشار إليه في درج كلامه على المتكسبين بالتصوف المتسلطين على العوام وشبههم بالذئاب المفترسة والضباع القرمة وقال : «ولولا الخروج عن المقصود لأسمعتك من بعض مثالبهم الخسيسة، ولكن إن أردت النتف من سماعها فقد ألفت في ذلك كتابا على حيلهم سميته بالوصية» (110) ولو وصل إلينا هذا التأليف لوجدنا فيها مادة غزيرة في النقد الاجتماعي الذي كان ابن خمير مشغولا به، ونحن نقدر أن هذا الكتاب تعرض للإتلاف على يد خصوم المؤلف من منتحلي التصوف.

4. شعـــره :

نعت ابن خمير ـــ كما رأينا مما سبق ـــ بأنه كان شاعرا مفلقا وقال فيه أحد معاصريه :

ولابـــن خميـــر في القـــريض تقـــدم
به بز قيسا وازدرى بابـــن غالب (111)

فما هو مصداق ذلك النعت وهذا القول ؟

الواقع انه لم يبق لنا من شعره ـــ أو نظمه على الأصح ـــ إلا القليل، وهو كله في أغراض دينية مختلفة، وقد أوردنا فيما سلف القطعة الميمية التي رواها له ابن الشعار، وهي أطول ما وجدنا من شعره.
وتليها من حيث عدد الأبيات قطعة استشهد بها في «تنزيه الأنبياء» فقد عرض في آخره إلى مسألة الكسب والتوكل وذكر فيها تخريجا لطيفا له ثم قال : وقد نظمت في ذلك على نقيض ما نظموه في قولهم إذ قالوا :

---

(109) راجع فهارس المخطوطات.
(110) مقدمات المراشد : 16 ظ.
(111) من قصيدة طويلة في ترجمة محمد بن هاشم الهاشمي المالقي في أدباء مالقة (مخطوط).

ألم تر أن الله أوحى لمريم فهزي إليك الجذع تساقط الرطب

فقلت :

أما علموا أن المقام سما بها لان جمعت بين التوكل والسبب
بأن لمست جذعا فأينع رأسه على الحين أفنانا وأثمر بالرطب
كما مس أيوب اليبيس برجله ففارت عيون طهرته من الصخب
ومس كليم الله بالعود صخرة ففجر من أرجائها الماء فانسكب
ومس المسيح الطين بالخلق فانتشا طيورا بإذن الله أحياء تضطرب
ومس يمين المصطفى الماء نطفة ففاضت عيون الماء من خلل العصب (112)

وهذا كما نرى نظم محكم لبعض ما ورد في قصص القرآن.

والقطعة الثالثة من شعره موجودة في «مقدمات المراشد» فقد عقد ابن خمير في هذا الكتاب فصولا في إثبات معجزات نبينا محمد (ﷺ) في إثبات معجزات القرآن العظيم وكونه أم المعجزات وأنه معجزة خالدة باقية وليس كسائر المعجزات التي أعربت عن صدق صاحبها ثم انصرمت بزمانها، قال ابن خمير : «وقد مدحت رسول الله (ﷺ) بشعر أشرت فيه إلى هذا المعنى فقلت :

وأنزل الله قرآنا يطهرنا من الخبائث في الأصال والبكر
ما زاد في العمر زيدت فيه بينة تبدي شبيبته في غابر العصر
يبلى الجديد على كر الجديد له وذا يجدد في أيامه الغبر
هذا لأحمد من أقوى دلائله فوق الدراع ونبع الماء والقمر» (113)

ومن الواضح أن هذه المقطعات لا تكفي في الدلالة على شاعرية ابن خمير كما قررها البيت السابق.

أما تأليفه «تنزيه الأنبياء» وتأليفه «مقدمات المراشد» فإنهما يدلان على مكانته العلمية ويشهدان بمشاركته المتميزة في تلكم الحركة الفكرية الكبيرة التي عرفتها مدينة سبتة — رد الله غربتها — في عصرها الذهبي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، وذلك ما جعل أحد شعرائها يصل نسبها بمكة والمدينة إذ يقول :

سلام على سبتة المغرب
أخية مكة أو يثرب (114).

(112) «تنزيه الأنبياء» : 135 وانظر الأبيات التي نقضها ابن خمير في «بهجة المجالس».

(113) مقدمات المراشد : 39 و.

(114) مطلع قصيدة مشهورة لمالك بن المرحّل.